مدرسة تعليم اللغة العربية في القرن الرابع الهجري
مقارنة ديداكتيكية لجوانب من مناهجها ومواضيعها

أ.د. رشيد حليم
جامعة الطرف

الملخص: يعتقد بعض اللغائيين العرب أنه لم يعهد في تاريخ الدروس اللغوي العربي القديم وجود مدرسة تعليمية تهم باللغة العربية ومواضيعها، وقد يكون من باب المجازة التاريخية والفكرية، اللون بتهيئة فقهاء اللغة إلى تشكيل رؤية علمية ومنهجية تسعى إلى تعليم اللغة معارفها إلىistentوة الغربي المستعرب، غير إن الناظر في ما أنتجه علماء اللغة في القرن الرابع الهجري خاصة يجد جذور التأسيس لمدرسة تعليمية عربية تجلى ملامحها في ما ننى عليه ابن خلدون وما ذكره إبراهيم في توصيفه لمدرسة أبي علي الفارسي التعليمية التي خزنت علماء كبار ومعالم عظام أشهرهم ابن جني والريعي والجرجاني، وامتقى تقسيمها إلى المتاخمين كالعكبي (ت616هـ) وابن الحاجب (646هـ) وابن عصفر (665هـ) ابن خلدون وغيرهم من علماء اللغة ممن كان على محيط فكره من الواردين ومن جليل كتبهم من اللاقلنين وجميعهم ينال من صاف معينه ويستفي من عنب مورده.

الحق، إن هذه المدرسة التعليمية التي أقامها الفارسي إنما خطط هيكلاً وسطر مضمونها في كثير من مؤلاته اللغة أشهرها الإيضاح، وتبعثه تلميذه ابن
جني في ما ألف من مختصر الكتب التعليمية أشهرها: التصريف الملوكى وعلم التثنية.

وتنبئي قواعد هذه المدرسة التعليمية على مبادئ تشبه ما نهج البيغاغوجيون في ضبط برنامجها وطرق التحصيل فيها، بيد أن لها لم تخرج عن وضع الكيفيات لإنقاذ اللسان العربي والتمكين من اكتساب الملكة اللسانية السليمة.

وفي هذا المبته، تعرَّف مداخلتنا برجال هذه المدرسة التعليمية ونتاحها العلمي وتتبع جوانب من أعراضها التعليمية، وتبرز أدواتها المناهجة، وأهدافها المعرفية وفق مقارنة لسانية جادة.

مقدمة: لقد غذى درس اللغة العربية عند العرب القدامى من حاضر الثقافة الأصلية للمجتمع العربي الإسلامي، كما اكتسب موضوعاته من أحيائها، كما استمد أساليب النظر عن خارجها، وذلك بما غنه من بحوث أخرى جذبها التواصل العلمي بين العقل العربي والفكر الأجنبي الوافد.

وساهم هذا التمازج المعرفي في بلورة مسارات منهجية تمكناها الأولئ من العلماء فيباروا الفعل التعليمي بادئ الأمر في النص القرآنى باعتباره المركز المحوري الذي تلفح حوله جميع البحوث والدراسات. وهذا ليس جديدا، فقد كانت نشأة البحث اللغوي عند كثير من الشعوب مرتبطة بالنص الدينى، إذ اتجهت الدراسات اللغوية عند الهنود والسربران إلى معالجة موضوعاته، وقد سبقت الدرس العربي بعهد مادة ومنهجا. إن المنطقات الأولى للدرس العربي قد انخرطت إلى تتبع الخطاب القرآني في سبيل المحافظة على سلامة أدائه بعيدا عن غلواء للحن ثم لحق ذلك جهود أخرى عنبت بأعراض أخرى، فتوسعت المجالات وشملت موضوعات البيان والأسلوب، إلى جانب المبادئ الأصلية الخاصة باللفظ شكلا.
وإعراباً وبلاغة ونقداً، وهو مجال من مجالات النحو العربي، إذ أصبح يعني جل تلك الأعراض وأصبح مصطلح النحاة يطلق على العاملين في هذه الحقول اللغوية.
بلغت علوم العربية النضج إلى حد الاحتراف وبلغ الاعتناق النحو درجة التفهم بسبب الرعاية المجاورة لما ألف، ولما شرح 41، وفيما وضع من تطبيقات، مما أدخل على النقوش الملام وعلى الملفقات الكبير، ولم يجد المتعلم العربي بدأ في منتصف القرن الرابع الهجري في استدعي الركاب وال�Śادة للمادة النحوية، فوجاء العزوف تعميهم مفضلاً عن مسيرة تلك الحركة العلمية المشهورة مما دفع بعض الحاذق من أكابر العربية إلى النهوض لتصحيح مسار نشاطات المد التأليفي للمادة النحوية.
بلغت تلك الصحوة الألباب المتبرزة، فاندفع أفذاذ العربية يلممون ا لأبواب النحوية في مختصرات مفيدة وجادة تصل للنشرة تتناول العربية في بسر، فألف ابن السراج (ت316هـ) كتابه الوجيز في النحو، وسارع على متملِّه الزجاجي (ت337هـ) فكتب مقولته المجل، ولم يخلف أبو علي في متابعة جهد أستاذته وتوفيتها، فخلف لنا دررا استحصناه الخلفون من العلماء، وأشاروا إلى أهمية ما عمل الفارسي الذي راعي الواقع العلمي والتعليمي للملتقيين وليسته أيسر التسل. لإعداد صياغة المفاهيم المعرفية واحتراء انعج الطرق لتبليغها، وقد سار نجاة سديمة لمن بعده من النحويين، فضايعه في العمل ابن مالك في تسوية وابن هشام في قطر الندى ويل الصدى.
لقد أشاد ابن خلدون (ت858هـ) بجهدي الزجاجي والفارسي قائلاً: ثم وضع أبو علي وأبو القاسم الزجاجي كتبًا مختصرة للمتلقيين يجدون فيها حذو الإمام في كتابه. ولا شك في أن ابن خلدون يعني كتاب الإيضاح لأبي علي وكتاب الجمل للزجاجي وفيهما ما قصد
ابن خلدون وما قصدناه:
- هما كتابان تعليميان
- يغطيان المادة اللغوية بأسلوب الوساطة

1- قراءة في كتاب العربية التعليمية: من المصطلحات العلمية المعروفة في
dرس اللغوي العربي مصطلح العربية، ومصطلح النحو، ويعبر استعمال
مصطلح العربية للدلالة على معنى النحو، فيما يتناوبان في كثير من كتب العربية
وعلومها. ألف فقهاء العربية القديم بعد الخليل وسفيان وإمداد مولفات تعليمية
كانتا على وعي تام بضرورة صناعة مختصرات تتم مبحث موضوعات محددة
وتصاغ بأساليب واضحة، تناسب إلى حد كبير قنوات المتعلمين من العرب
والمستعربين على اختلاف أعمارهم ومستواهم المعرفي. هذه المختصرات تظهر
أهميةها في الجمع بين الموضوعات الأساسية في اللغة والنحو ضمن صفحات
محدودة. إن التأليف في المجال التعليمي الخاص بالعربية وقواعدها لم يكن من
عمل فئة متخصصة في النحو، بل كان من اجتهادات علماء متخصنين في اللغة
العربية بجميع فروعها، مع تصنيف النحاة مع طبقة اللغويين، غير ما ذكر
السيوطي في تقريب المهام العلمية بين اللغوي والنهوي. وإذا ورثنا للكتب المصنفة
في المجال التعليمي العربية، فالقول إن المكتبة العربية زاخرة بهذه الكتب منها ما
خرج مطبوعا ومنها ما زال مخطوطا، ينتظر عملا بيعه إلى البيئة العلمية كذلك
هناك كتب تعليمية نالت من النبويع والشهرة ما لم يلبها غيرها وحظوظها كحظوظ
الناس في الزمن يصيبها ما يصيبهم من طمس وتهميش.

ومن الذين كان لهم باع في التأليف التعليمي، ذكر علماء القرن الرابع
الهجري ابن فارس وابن جني والزناني، وغيرهم وقد أشار إليهم الأستاذ محمد
ساري في أطرامته الموسومة ب: "التيسير النحوي قديما وحديثا"، وغلط ما ذكره
الزبيدي حين أشار إلى سبب ابن درستويه وابن السراج في وضع مؤلفين تعليميين
يحصلان لربية النشء وتمكينه من العربية. وتابع هذا الجهد علماء آخرون في
المغرب والأندلس. ذكر ابن هاشم وكتابه قطر الندى ويل الصدى وابن مالك مؤلفه
العظيم شرح التسهيل، وابن مضاء في الرد على النحاة.

ونظروا لكم الكبير في هذا المجال، انتخبا كتابين يلحثان أن يكونا منكرتين
تعليمين، وقد لعب بهما القدماء والمحدثون، فصلا عما نالما من شهرة في الأقطار
وذيوع في الأمصار، وما كسبا من شروح وما لقبا من قبول عند المعلميين.

2- من الكتب اللغوية التعليمية:

أ- الإيضاح في علل النحو للزجاجي: لقد شاء للدرس اللغوي العربي أن
يتأسس على قواعد النظر العلمي، ويقوم على أسس منهجية، وهو الاتجاه العلمي
الذي أدركه جميع المعارف الكونية. وفي اختيارنا لكتاب الزجاجي المعنون أعلاه
يتضح المبتغي، ويتجل المقصد:

* نعدد أول محاولة لاستيعاب أصل منهجي في درس العربية وهو

التعليم، فلم يسبقه أحد في هذا التأليف

* بعد عمل تعليمي جديد، قال شوفي ضيف وهو أحد المهتمين بتبسم
النحو: وكنا نظن طنا أن ابن جنإ أولا من أفرد للعلل مؤلفات خاصة بها على
نحو ما هو معروف في كتابه الخصائص، حتى عبر السيد مازن المبارك على هذا
الكتاب للزجاجي وقد سماه الإيضاح في علل النحو.

- الكتاب مخصص لتعليم العربية، وقد صاغه بناء على أسس التفكير عند
مدرسة البصرة والكوفة، وقد نبه على أن ما ألف كان صعب التناظر مستغلق الفهم
قال: غيّرته عنها بألفاظ قريبة من فهم الناظرين في هذا الكتاب، فهبدتها، وسهلت
مرارتها، والوقوف عليها.
- مؤلف مختصر، يقع في ثلاثة وعشرين بابا، يضم تعريفات تفصيلية لمفاهيم النحو وتقييمات الكلام وأحكام الإعراب وعمل النحو، وأها العمل التعليمية وهي المعول عليها في تعلم العربية لأنها فطرية وما وقائع لطبائع العربية ولا تحتاج إلى تعليل أو جدال.

ب- الإيضاح العضدي للفارسي: هو كتاب صغير الحجم لا يتجاوز مئتي ورقة خصصه الفارسي ليست أحكام النحو استقراء من كلام العرب، ورتبه على شكل قواعد نحوية ميسرة، سهلة الفهم، رقيقة المذاكر، سريعة المذاكر، ونجمه الفارسي خصصا لأسرة عضد الدولة وأبنائها، والكتاب على طلاقة اسمه هو الزيتين والتسهيل، وهذا الكتاب على إجازته وخصوصا نال إعجاب العلماء، فهو كتاب علمي، ولكن حظه في الانتشار كخطوطة الناس يصيبهم ما يصيبهم من ذهاب وخلايل. وهذا الكتاب يوفي على كبار الكتاب التي من جنسه في حسن الصياغة ووضوح العبارة حتى كتب الفارسي الكتاب الإيضاح دون غيره.

ولعل نلمذع الجراني قد استوعب مثيرات ذلك الزمان في سبيل تأليف المختصرات، فاحالنا على عامل مشترك في علا كتابته للدلالات، وعلا كتابة شيخه للإيضاح، إذ عرف داء الأفكار في زهدهم تعلم النحو.

3- المقاربة الديداكتيكية بين الإيضاحيين والدرس التعليمي للعربية: والذي يوفق للإطلاع في الكتابين يستنتج طرحا علميا مفيدا. يمثل في معرفة العالمين الزجاجي والفارسي الغرض اللغوي الذي هنا باصد التأليف فيه وهو ما تعنيه اللفظيات بالتركيب (Syntaxe)، على أن كتاب الزجاجي إضافه إضافة إلى ما ورد فيه من تعريفات تخسن المسائل الإدراكية في النحو، فقد تعرض إلى موضوع ثان يتصل بمنهج البحث والدراسة وهو الكشف عن ميزات وجود العلاقات الإعرابية.
في تعليل الكلم، وهذه المسائل اللغوية التي اعتبرها بعض الوصفين العرب من
القضايا المعربة.
غير إن منطلقات المدرسة التوليدية التحويلية ساهمت في الكشف عن جدية
التأسيس التدريبي لموالع الكلم في الجملة.
-
المقاربة من حيث المادة اللغوية التعليمية: يعد الكتابان من أوائل
الكتب التدريسية المتخصصة في دراسة العربية وقواعدها، وقد صيغت معظم
الأبواب فيها على طريقة مشابهة ببدا بالتفاصيل في تقسيم الكلم ثم شرح المسائل
التحوية، وإذا قارينا ما حمل الكتابان في قضايا اللغة وال نحو وما كشفت عنه
الدراسات اللسانية التطبيقية في مجال التعليمية، نشير إلى:

- مراعاة قدرات المتعلم: لا شك في أن مباحث تعليمية اللغة تقوم على
محارب ثلاثة، وهي المتعلم والمعلم والمادة التعليمية، وإذا نظرت في الكتابين
المذكورتين عرفت أنها مخصصة للنشر وليس للкар، خاصة أيضاً في
فقد ألفه لأبناء أسرة عضد الدولة. إن تخصص المؤلفين لفة عمرية محددة يتوافق
علماً بما جاءت به مفاهيم اللسانيات التعليمية في التركيز على قدرات المتعلم
ومراة المستوى الاكتسابي المتلف.

- تضمن الكتابان مفاهيم أولية تعتني بالتعريفات والحدود للأغراض
التحوية الإفرادية ومسائل متشابهة في تنظيم أوباب النحو، المروفات ثم
المصوبات ثم المجبورات على طريقة السلف في تسهيل دراسة النحو للمبتدئين
إطلاقاً من معرفة متميزة في تقسيم الكلام وهو تقسيم لم يخرج فيه ابن فارس
والفارسي عن خطأ الإمام.
*- تتجلى المغامسة بين تلقي المتعلمين لمضمون هذين الكتابين في أنهما معدون للتدريب في حلقات المساجد، وقد درس الإيضاح في باحة قصر عضد الدولة، وخصوص لأطفال الأسرة المالكة.

*- إن عرض المادة اللغوية في هذين الكتابين لم يكن جافا تجريديا، وإنما أكثر ما عنى فيه الاستعانة بالأمثلة والشواهد من واقع البيئة المكانية والزمانية وحل لهمها تشتملية مشابهة "الأيضاح" ينبئ عن الاستعانة بالياما، منها التمثيل والتحليل والوصف وغيرها من الأدوات التي حث عليهادرس التعليمي المعاصر.

2- اعتماد الطريقة الوصفية: حين بصر في طريقة بناء مصممون الكتابين تتجلى لك الطريقة الوصفية في صياغة المادة العلمية للمؤلفين، فكان الارتباك على الأشكال واضحا، وهذا ما سطره النظرية البنوية في تعلم اللغة وحفظ متنها، ولعل التحويل على التقنيات الوصفية هو المنحنى الذي سلك في الكتابين. ففي تحليله للغة القديمة يمثل الزجاجي بتعدي الفعل والعناصر كان يقال نثبت زيدا بأن في قوله: إن زيدا قائم، ولم يجب أن تنصب إن الاسم ؟ فالجواب في ذلك أن يقول: لأنها وأوائلها ضربت الفعل المتعدي إلى مفعول، فحملت عليها فأعلنت أعماله لما صارعته فالمقصوب بها مشبه بالمفعول لفظا والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظا، فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله نحو ضرا أخاك محمد وما أشبه ذلك. ومن المسائل الوصفية التي سار عليها المفسر في بناء المادة اللغوية وأقرره النظرية النسبية الحديثة: قاعدة البنية السالبة.

هذه قاعدة لغوية أساسية تتم بظهور الفظ وتعني ببنيتها الشكلية، حيث تحل المملي إذا حدث فيه زيادة صرفية قليلة، من نحو إضافة وحدة صرفية Prefixe، أو تضعيف في الوحدة الفونيمية الوسطى، ففيها عنها تحول في صيغة Lexeme البنية يتبعه تحول داليا من المعنى الوضعي الأصلى إلى المعنى السلي.
النفاء)، هذا المفهوم اللغوي القديم في بنية الكلم، لم تخرج المدرسة الوظيفية عن مفهومه، فعينت بتحليل الوحدات الفونولوجية التي تبرز المغايرة المعنوية ويصطلح على تسميتها بـ "الوظيفة التمييزية" ومثولهما؛ لا يؤدي الفونيم تلك الوظيفة إلا إذا كان مغايراً لفونيم آخر. ويطلق عليه "البنو" المرسول في تراث الفارسي ذل لانا ابن جنی غامض، وأحالنا على ابتكر لم يشبه إلا لأساتذة وسط القول في شرحه والتمثيل له، من ذلك قوله: الأصل في ما وضع من كلام العرب الإثبات وإذا عمدوا إلى النفي استعملوا أدوات دالة عليه، ثم بين أن العرب نزعت إلى التخفيف، فأسقطت الوسائل اللغوية المؤدية للنفي بزيادة وحدات فونولوجية في شكل الكلم، ومثاله:

- زيادة الهمزة: شوكته وأشكيته أزلت شكوه، ومنه باللغة الفرنسية: 
  
charger-décharger

أي ملاء وأفرقه

- تضعيف الوسط: نحو مرض ومرضته (بضعيف الراء)، أي دوبيته من مرضه

خاتمة: لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نتبع ميدانا يتعلق بغرض مهم نادى به الحقل التعليمي، أولهما النظر في إرث السابعين مما خلفوه من نظرات علمية صائبة وقد رزقنا على جهود الزجاجي والفارسي، باعتبارهما من المنظرين الأولين للدرس النحوي العربي، وحاولنا اكتشاف جديد فكرهما في ميدان لم تبتلور قواعده بعد، فتوصلنا إلى:

- معرفة ما ترك الزجاجي والفارسي من مؤلفات متخصصة تصلح أن تكون أرضية لبناء نظرية في تعليم قوا عد للعربية.

- الإطلاع على جانب من منهجه في الدراسة النحوية.

- ذكر بعض النماذج التيسيرية للتمثيل لتمكين الدارسين التعمق في غيرها
الأمر الثاني: مقاربة تلك الاستنتاجات بما جد من فكر لماي، وقد عمدونا التوصل مع المنهج البنيوي، وناظرنا به ما حللنا من أفكار.

الهوامش:

1- برجشتراسر، التطور النحوي للعربية، علق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ط 4، القاهرة 2003.
2- المقدمة، تح، درويش جوودي، المكتبة العصرية، ص 502.
3- م، ن، ص.
4- عبد الواحد، فقه اللغة في الكتب العربية، دار النهضة العربية، ص 35.
5- الرجلان، الإيضاح، تح، مازن المبارك، دار النفائس، المقدمة.
6- م، ن، ص 78.
7- م، ص 48.
8- ابن الأثير، الكامل، المطبعة الأميرية، ج 9، ص 19.
9- دليل الإعجاز، طبعة م - ف - م، الجزائر، ص 43.
10- تام حسن، مناهج في البحث واللغة، عالم الكتب، ص 43.
11- الرجلان، الإيضاح، ص 64.
12- مثال زكريا الأسلبية، (النظرية الأسلبية)، المؤسسة الجامعية، ص 237.
13- An tonyme, un mot qui a un sens oppose a celui d un autre.
14- الخصائص، تح، على التجار، دار الكتب، ج 3، ص 75.
15- م، ن، ج 3، ص 76.